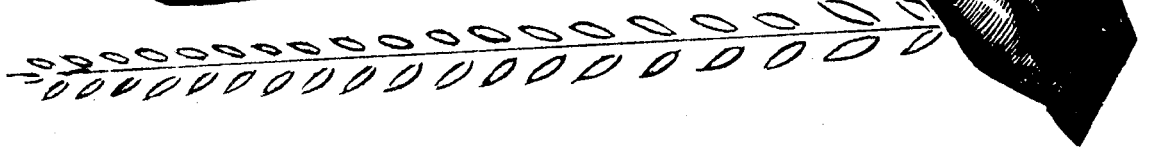


# النتائج الجديدة



## رواد الفكر الاشتراكي

تأليف ج. هول - ترجمة منير بعلبكي  
مشورات دار العلم للملايين ، بيروت - ٥٢٠ صفحة

✱

لم يحظ - في هذا العصر - اي موضوع بعناية تفكير واهتمامهم كموضوع الاشتراكية ، ذلك ان الاشتراكية على اختلاف معانيها ، وتعدد الاقوال فيها يجمعها قاسم مشترك لا يختلف فيه اثنان ، وهو اقامة حياة افضل فلا بدع اذن ان ينتحلها ، ويتخذها شعارا المخلصون والانتهازيون على السواء من السياسيين وغير السياسيين حتى موليه الذي اشترك مع اسرائيل في الاعتداء على بور سعيد يتزعم حزبا « اشتراكيا » .. وحتى هتلر الذي اشعل نار الحرب ، وقتل الملايين كان ينادي بالاشتراكية .. وهذا حزب العمال في انجلترا يناصر الصهيونية والاستعمار ، ويدعي الاشتراكية ..

واقبل حملة الافلام على الكتابة في الاشتراكية يضعون فيها المجلدات الطوال والقصاص ، ويدبجون المقالات في الجرائد والمجلات تلبية لرغبة القراء ، وكتب عنها اكثر من واحد ، وهم لا يحفظون منها الا الاسم ، وكتبت انا مقالا مطولا ومتسلسلا سنة ٣٦ في بعض المجلات ثم تبين لي اني كنت فيه كحاطب ليل ، بعد ان اقبلت على قراءة كل كتاب او مقال يحمل هذا الاسم بخاصة اذا كان منقولاً عن لغة اجنبية ، ومضيت في قراءة الاشتراكية اكثر من عشر سنوات ، ثم تركت - متخيلاً - انه لا جديد بعد الذي رايت ، حتى اهداني الاساذ منير بعلبكي كتاب « رواد الفكر الاشتراكي » فاستأنفت ، وقرأت منه الشطر الاوفى ، فوجدته فريداً وجديداً في اسلوبه وتبويبه ، وفي شموله واحاطته بكل ما يتصل بالاشتراكية من قريب او بعيد .

لقد حامت العقول - منذ القديم - حول الاشتراكية دون ان نكتشف حقيقتها واسسها ، ثم توالت الحوادث على مر الايام من الثورة الفرنسية ، وعلان حقوق الانسان الى الثورة الصناعية ، وتكديس الثروات ، وتجمع العمال ، واستقلال الفرد للجماعات ، فتبساور معناها شيئاً فشيئاً ، وان اختلف روادها في تحديدها ، وما يعتبر فيها وفي كيفية تطبيقها ، والطريق الموصل اليها .

وهذا ما تعدى لعرضه ودراسته ، « ج.د.ه. كول » في كتابه « رواد الفكر الاشتراكي » الذي نقله الى العربية الاساذ منير بعلبكي في ٥٣٠ صفحة بالقطع الكبير ووضع له اربعة فهارس : الاول للشخصيات الرئيسية ، والثاني للاعلام ، والثالث للموضوعات ، والرابع للمراجع العامة ، وقد استغرق هذا الفهرست الاخير ٢٨ صفحة من الحرف الدقيق لانه تعرض للسنة التي طبع فيها المصدر ، ولعدد الطباعات وللفة التي الف فيها ، ونقل اليها ، وجاء مرتباً ومبواباً حسب فصول الكتاب .

✱

ابتدء المؤلف بلفظة الاشتراكية : متى استعملت ؟ ومن سبق الى استعمالها ؟ ، واي معنى اريد منها في بدء الاستعمال ؟ وهل هناك صلة بين معناها الاول وبين المعاني المتأخرة ؟ ثم فرق بين اقسامها ، وتكلم عن روادها واحزابها ، وعن الظروف والملابسات التي احاطت بكل رائد ، واوحت اليه بافكاره واراته ، وعن صلة النظريات الاشتراكية بالثورة الفرنسية ، والثورة الصناعية ، والفلسفة المادية ، ونبه على ان كثيرا من الذين عدتهم الناس من الاشتراكيين ليسوا منهم في شيء الا في مشاركة الاشتراكيين بحب الخير والسعادة للجميع ، وعدم الثقة بالنظم السائدة ، كما بين السبب لنجاح من نجح ، واخفاق من اخفق من دعاة الاشتراكية ، الى غير ذلك من البحوث القيمة التي حوaha هذا السفر البتيم ، والتي تعطي القراء صورة واضحة كاملة عن النظريات الاشتراكية وبواعثها ، واهدافها ، وتاريخها ، وصلتها بالاحداث والحركات ، وما احدثته من مفاهيم جديدة تصل بحياة الناس والمجتمعات .

هذا ، الى ان القاريء المتفهم الفهم يجد ما بين السطور وفيما يعرضه المؤلف من اقوال وازاء حولاً لبعض المشكلات الفلسفية التي كانت تنتظر الحل منذ امد بعيد ، والملاحظ ان صاحب الكتاب قد عني باقوال ماركس بصورة خاصة ، فتتبعتها جميعاً ، وحرص كل الحرص على ان يرجعها الى من تقدم عليه من فادة الفكر ، حتى لم يدع له شيئاً مذكورا .

واذا اردنا ان ندلل ونثبت صحة الترجمة ودقتها وروعيتها فيكفي لذلك كله ان نذكر اسم الاساذ منير بعلبكي الذي عرفه قراء العربية جيداً في سلسلة علم نفسك ، وغيرها من كتب الادب والثقافة ، وعرفوا فيه عبقرية الفكر ، وصفاء الاسلوب ، واحتراموا في شخصه المسلم والامانة ، وقدروا له ما اسداه للمكتبة العربية من خدمات في مجال المعرفة والثقافة .

ومن اهم ما يمتاز به الاساذ منير انه ينقص روح المؤلف حين يترجم من الانكليزية الى العربية ، ثم يضيف على افكاره من ذوقه الادبي السليم ، واسلوبه الرائع المين ، وليس من شك ان اسمه سيحتل الصدارة في تاريخ الترجمة ، هذا الى مكانه الرموق كمفكر ، ومنتج ، واديب ، بل استاذ الادباء ، ينقل اليهم ثمرات العقول النيرة باقرب السبل واسرها .

وبعد ، فمن اراد ان يتفهم الاشتراكية ، وتاريخها ، وتطور تطبيقها في مختلف الادوار فلاغنى له عن كتاب « رواد الفكر الاشتراكي » اما من يقتنع بالدون من ذلك فهو في غنى عنه .

محمد جواد مغنیه

بيروت



## وانسلد الستار

مجموعة تمثيلية - ترجمة سمير شيخاني - ٢١٠ ص

★

إذا كانت النهضة الأدبية تقضيها في بلادنا العربية ان نفيد من إنتاج الآخرين، وكان لنا ان نعمل بما تفضيه تلك النهضة، فأول ما ينبغي ان نتجه اليه في ترجمة آثار الآخرين، إنما هو ادب المسرح أولا والقصص ثانيا .

ذلك لأن مجتمعاتنا القديمة كانت حتى في أزهي عصورها، وإبرز ما فيها، غريبة عن هذين النوعين الإبيين بمفهومهما الحديث .

لم ينح للمسرح ولا لأدبه ان ينتشر في قرطبة، ولا في بغداد، ولا في القيروان، ولا في دمشق، يوم كانت هذه العواصم ملء أسماع الدنيا وأبصارها، ومصدر أشعاع للعدو والشعر والحياة الروحية والبحث العلمي، وان أتيج للقصص، على نحو ما، وبطريقة ما، ان يشق طريقه الى حياة السواد، ويعطي بعض الأثار التي لا تزال الى يومك هذا موضع الإعجاب، ومثار الدهشة، وينوع أيعاء... والسر في خلو الأدب العربي من المسرحيات يعود الى أكثر من عامل اجتماعي وروحي، ونفسي، وتاريخي .

وأية كانت العوامل التي حالت دون ظهور هذا النوع في دنيا العرب السابقة، فان عالم العرب اليوم نشط الى تدارك ما فات، والإطلاع على كل ما رفض من قبل الإطلاع عليه، وأخذ يسير في ركب الحضارة الحديثة، يستقي من آدابها، ويستوضح ما خفي من أسرارها، ويسهم الى حد، في توجيه أحداتها .

وهذا هو الأستاذ سمير شيخاني يقوم بجهود مشكورة في نقل بعض الأثار المسرحية الى لغة العرب، ويعني عناية كبرى باختيار ما ينقل، ويجدفي إعطاء هاتيك الأثار صيغة عربية سليمة، فبعد ان نشر مجموعة «سهرة بوكر» لمسرحيين عالميين، برزوا في هذا الجانب من الحياة الأدبية على صعيد عالمي، يقدم لنا اليوم مجموعة ثانية من هذه المسرحيات، عنوانها «... وانسلد الستار»، تحوي ست تمثيلية. اليك أسماء المؤلفين الذين اختار منهم الأستاذ سمير مجموعته الجديدة: سميرست موم، تشيخوف، سترندبرغ، بيرنديللو، دوستوفسكي مورلي . وكلهم من أساندة ذلك النوع الأدبي، وإفطابه الرموزين . أما أسماء المسرحيات التي اختارها فهي: الرسالة، الخطبة، المرأة الأقوى، وأجب الطبيب، الزوج الخالد، ليلة الخميس .

وأطرف ما في هذا الإختيار ان أكثر أولئك المؤلفين ممن برعوا في عالم القصص واشتهروا به، فسميرست موم أشهر من ان نتحدث للفراء عنه، ولا سيما في عالم القصة القصيرة (الافصوصة)، ومسرحيته «الرسالة» التي نقلها سمير في مجموعته هذه، كان قد كتبها في الأصل قصة قصيرة، ونشرت في جملة أفاضيله التي بلغت ثلاثة مجلدات وقد سبق لي ان ترجمتها كأفصوصة، ولم أطلع عليها كمسرحية، ورايت من الفروق ما وجدته شائقا وطريفا . ولا يقل تشيخوف عن موم شهرة، هذا ان لم يفقه في أكثر النواحي القصصية، بل ربما كان أعظم رجل عرفه هذا الفن، وقد كتبت عنه دائرة المعارف البريطانية انه «كان يكتب القصة كما ينتفس» إشارة الى السهولة التي تظهر عنده في مراس الأدب القصصي . وذلك هو شأن دوستوفسكي وبيرنديللو من حيث بعد الصيت، ووفرة الإنتاج .

غير ان سمير لم يكتف بالاسماء وشهرتها، وحسن الإختيار، وصحة النقل، وسلامة الأداء، وإنما أتبع كل مسرحية نقلها بحديث قصير عن مؤلفها، وبين للقارئ خصائصه وما يتميز به في فنه، وروي أهم الأحدات في سيرته، ثم وشى ذلك كله ب: «كلمات» تحوم في معظمها حول المسرح وأدبه، كهذه الملاحظة لكابو: «الشباب يعتقدون انه لا شيء أسهل من كتابة مسرحية، وهذا صحيح . ولكن ليس أصعب من النجاح» وهذه التوجيهات لبول كلوديل: «أصفوا جيادا، لا تسعوا وحاولوا ان تفهموا قليلا . ذلك بان ما لا تفهمونه هو الأجل، وما

تجدونه طويلا هو الأكثر تشويقا، وما لا ترونه مسليا هو الأكثر دعابة وغرابة!» وهذه الفكر لارسطو: «ان أهم ما في التأليف المسرحي كله هو بناء الحوادث . ولست اعني حوادث الإنسان، ولكن حوادث الموضوع (الفعل) وحوادث الحياة.»

لم يبق بعد ان بينت لك مضمون هذه المجموعة من المسرحيات، الا ان أحدثك عن كل واحدة منها، وان أشير الى كل مواطن من مواطن الإبداع في ترجمتها، والى مقدرة سمير على تطويع التعبيرات العربية لإداء مواقف اجتماعية «غريبة» عن هذه البيئات والمناخات . وهنا يصبح من الأفضل ان تعود الى المسرحيات نفسها وتقرأها بنفسك، فانك لا بد وأجد فيها كل ما يتمتع ويزوقك .. ويعود عليك بأحسن الفوائد .

عبد اللطيف شرارة



## يزيد بن مزيد

تأليف الدكتور عبد الجبار الجومرد

نشر دار الطليعة، بيروت - ٣٥٢ ص .

★

لقد كنت دوما أرى الخير، كل الخير، في الإنفئات الى هذا التراث الضخم من الأحدات الحضارية التي كن صنعها أولئك الرجال الذين قادوا مقدرات العالم طيلة الف من السنين: بين وثبتهم الطامية الأولى من الجزيرة اللافحة الهجير، الى دكهم الممالك والعروش، وجوبهم الفياقي والبلاد والسهول، فاستقطبهم العالم في امبراطورياتهم التي تألفت بالعلوم والفنون، والآداب والصناعات، والتراوات والذخائر، والإمجاد والرحلات - أحداث حضارية بلغوا فيها الشأو الأعلى، فاشوا إنسانيتهم كامة، شامخة قوية، ضاجة بالخير والحياة والنشوات، وردوا الأمانة التي ائتمنوها أضعافا مضاعفة، فبرهنوا ان الكرم الذي دارت عليه حياتهم في نشاتهم الأولى، ظل القطب الذي انبثقت عنه مجالات سلوكهم وإنتاجهم وخدماتهم في مواطنهم الجديدة .

لقد كنت دوما أرى الخير، كل الخير، في الإنفئات الى هذا العديد الذي يكاد يمتنع حصره من الأحدات الباهرة - الجماعية والفردية - في الفتح والحرب، والعلم والصناعة، والفن والآداب، والقضاء والتشريع، والعمارة والتجميل، والتعليم والطبابة، ودراسات الجمال والسلوك والشاعر - أحداث باهرة، أثبتت، بما لا يقبل النقص، أصالة أولئك الجماعات والأفراد الذين كانوا أبطالها، وبينت بوضوح يجلو كل شك، ملكتهم الاستيعابية الفائقة، وموهبتهم الخلاقة التي تثير الإعجاب .

لقد كنت دوما متأكدا من ان استهلال معالجة الأزمة الضميرية التي تستشعرها جماعات الشرق الأدنى والأوسط أزاء دورها من عملية الخلق الحضاري العام لا يكون الا برد الاعتبار الذاتي للإمكانات الخلاقة في الأجيال الصاعدة فيها، وذلك بجلاء القسط الهائل من المشاركة الخلاقة الذي قام به أسلافهم في زيادة مداميك الحضارة في ماض ليس بعيد إذا قيس بحساب الزمن الكوني .

وأنا، بين تطلمي ذلك، وتاكدي هذا، كان يثلج صدري، ويثلج كل حين، أرى المحاولات الجديدة للبحث عن هذه الفلزات المشعة في التاريخ الحضاري العربي، وتقصي سيرتها كاملة في المراجع والمطالغ المتمدة، ثم في جلانها وتقديمها في قالب يسهل على المعاصر تقبله واستيعابه، بعد إخضاع ذينكم البحث والنقصي للكمة النقد النزهة، والأمانة العلمية الراسخة، والسعي لتعليل منهجي للوقائع يراعي

✱

من تلك المحاولات الجديدة ، هذا الجهد الصادق الذي بذله الدكتور عبد الجبار الجومرد لجلالة شخصية «يزيد بن مزيد الشيباني» القائد الأعلى لدولة هارون الرشيد .

لا شك ان المؤلف غني عن التعريف ، فهو نائب الموصل ، ووزير خارجية ثورة 14 تموز في العراق ؛ وهو الى ذلك - بل لا فرق بين ما يدعوه الى العمل السياسي والانتاج الادبي - مؤلف الاثرين القيمين: « الاصمعي » و « هارون الرشيد » ؛ انه حيي التاريخ العربي ، وعاش مشاكله ومفارق الطرق فيه ، وتحسس مواطن الخطر على القومية العربية في حقبة المتعاقبة ؛ كما استوعب الادب العربي ، وتذوق رائع شعره وبلغ نثره ، فكان له من ذلك ومن علمه العزيز ولاحيته النفاذة، وملكته النقدية العلمية ، والمنهجية المنطقية عنده ، وموهبة التعميل السديدة لديه ، بالإضافة الى مشاعره السامية البناءة ، وما تكنه من آمال راسخة الاسس في مستقبل زاه مشع لدنيا العرب ، - اقول ، لقد كان له من كل ذلك آله احسن اصطناعها لاتحاف القراء بآثاره القيمة. ولولا رغبة في تدارك تواضعه البالغ ، وخشية من اثاره خرفة الشديدي، لاسهت في سرد ما اعرف عن مزاياه ، ولكني اجتزى بما ذكر لاجول مع القارئ في كتابه الذي اقدم له « غرة العرب : يزيد بن مزيد الشيباني » .

✱

شاء المؤلف ان يجعل كتابه في ثمانية فصول ، خصص الاول منها للكلام عن « تاريخ قبيلة شيبان » ، القبيلة التي كان من افرادها «يزيد ابن مزيد» . انا نقوم مع المؤلف في هذا الفصل باستعراض لتاريخ العرب الاقدمين ، فنطلع على ادوار جاهليتهم المتعاقبة ، وندرس نواحي حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والادبية في العصرين الاخيرين قبل ظهور الاسلام ، لننتقل بعد الى دراسة القبائل في الشعب العربي ، وتعميل نشوئها وتسلسلها ، مع دراسة تحليلية لمختلف ابرز مظاهر التكوين الاجتماعي لديها ؛ ثم نطلع على التقسيم العام للقبائل الذي شمل الجزيرة ، لنخلص منه الى الكلام عن قبيلة شيبان بالذات ، متبينين مجرى تحدرها ومستعرضين تاريخها الفصل في الجاهلية ، حيث يتاح لنا استعراض ايام العرب ، وحرب ذي قار على الخصوص ، وما كان لها من نتائج وآثار .

وتقلب صفحة التاريخ ، وتمور الجزيرة باعظم حدث وهو ظهور الاسلام ، فاذا بنا نشهد موقف القبيلة من هذا الحدث ، ونتسائج ماترها في معارك الفتح ، ونعيش حياة ملحمة رائعة مع المشي بن حارثة الشيباني ، فنراه يفتتح المعارك لذلك اميراطورية الفرس ، ويتابع مقارنته لدولة الاكاسرة ، الى ان يزول الطاق ويتحطم العرش ، وذلك باغلى ثمن يمكن لقائد شراء النصر به ، الا وهو الحياة ...

ونواري المشي امه الارض ، ونستودع روحه المحيطة جنات عدن، ثم نتهيا لتابعة الملحمة الشيبانية في التاريخ ، حيث نتقل الى الفصل الثاني من الكتاب ، الذي خصصه المؤلف للكلام عن « اسرة يزيد ومواده ونشأته » .

✱

نحن الان في الربع الاخير من القرن السادس الميلادي ، نجوب مضارب شريك بن عمر الشيباني واسرته على جبل ( سنام ) في اليمامة، وشريك غائب في مطالب المجد ، اذ هو يشغل وظيفة رديف الملك المنذر بن ماء السماء في العراق ؛ وتتابع احداث حياة القبيلة وترعرع الاباطال في ربوعها ، ومنهم الحوفزان بن شريك ، من فرسان العرب البيامين ؛ ثم نشهد بلاد شريك المعجوز في حرب ذي قار ، ونراه يقطع اكمامه قبيل المعركة ، فتقطع شيبان اكمامها ، تخففا للاستشهاد ، ثم نرى الى انقضاضة النسر العتيق الى المعركة ، ونزوله عن الروح فيها ثمنا للمجد ، وجعالة للقيادة ، كما نرى الى تسابق اولاده واحفاساده الى الموت ، فيتكشف لنا السر عن هذه المدرسة الخلافة للاباطال ، التي

وتكر السنون ، وتشارك شيبان في جيوش الفتوح ، ثم يعروها ذلك الدافع الى النقلة ، الذي يعيش في دم كل اعرابي ، فاذا بهاتحدر الى الكوفة ، حيث تنقسم ، تبعاً للقانون التطوري القبلي ، الى قسمين، يكون احدهما بنو مطر بن شريك ، الذي ينشأ عنه بنو زائدة بن مطر . وبعد ان نعيش حياة ممن بن زائدة الملحمية ، ومعاركه ضد الخوارج والعباسيين ، وانضمامه الى البلاط العباسي بعد حادثة غريبة ، نشهد دخول بطلنا « يزيد بن مزيد » الى المسرح لاول مرة .

ولا ينتقل المؤلف بنا من هذه الفترة قبل ان يبصرنا بسلسلة نسب يزيد وطولته ، ويطلنا على تلك الفترة من حياته التي مرت قبيل بلوغه العشرين عاما ، حيث نراه يعيش تحت راية عمه ممن بن زائدة ، فيصاحبه في سيره الى اليمن ، وفي زحفه على اقليم سجستان ومجاريته للخوارج والترك . حتى اذا اغتال الخوارج ممن بن زائدة وهو يستحم في داره ، برز يزيد الى احتلال مكان الزعامة من القبيلة وتولي قيادتها ، ثم نال منصبه الرسمي الاول بتوليه اقليم سجستان . ولكن خلافاً مع ولي العهد، يجعل المنصور يقض عليه ويستدعيه الى بغداد، حيث يامر بسجنه ويطلق سراحه فيما بعد .

✱

وهنا ينقلنا المؤلف الى بلاط بني العباس ، فيقدم لنا لفصله الثالث بدراسة للقوى المتصارعة فيه ، العربية والفارسية ؛ ثم يزج الستار عن خفايا اعظم تسلسل فارسي الى الدولة العربية ، عيننا به اسرة الوزراء البرمكيين . ولا يفوت المؤلف هنا ان يتطرق الى ابحاث عامة ، في رسم لنا صورة واضحة عن تكوين الجيوش في الدولة ، واختلافها من نظامية دائمة ومستنطرة قبلية ، مبينا مركز يزيد بن مزيد بين قواد هذه الجيوش جميعا .

وتبدأ حياة يزيد كرجل ذي خطر تعتمد عليه الدولة في الملمات ؛ فاعداؤها الخوارج يدبرون مؤامرة لاغتيااله على احد جسور بغداد ، ولكنه ينجو منها بفضل شجاعته وبطولته ، والخليفة ينتدبه لاكماد ثورة في خراسان ، فاذا به يناجز زعيمها ( البرم ) وبأسره بنفسه ؛ وتتوالى الاحداث ، ويقوم المؤلف بتقديم اللوحات عن الاحداث الحربية في ذلك العهد ، مبينا التيارات الخفية التي كانت تسرها وتصاحبها ، فاذا نحن نصاحب حملتين على بلاد الروم، اولهما تسيطر عليها التيارات الفارسية ، وثانيتهما عربية ، يتولى قيادتها يزيد بن مزيد ويعقد لواؤها لولي العهد هارون ، نشهد خلالها احداثا جساما تصور قلب الجيش العربي على جيوش الروم في آسييا الصغرى ، وضيق القسطنطينية بحصار الجيش العربي لها ، وردها له بدفع الجزية ، مما يشهد ببراعة يزيد في القيادة ويبين مدى شجاعته واخلاصه في خدمة الدولة .

✱

اما الفصل الرابع من مؤلفنا فيخصصه الكاتب للكلام عن شخصية يزيد النادرة ؛ انه يرسم لنا لوحة بارعة عن صورته ومظهره ، ويعقد لنا فصلا ممتعا عن اعرابيته وفتوته ، ثم ينتقل الى مدح الشعراء له، ومواقفه من مادحيه وهجائه ، ثم يبين لنا مبلغ نقده للشعر وتذوقه له، لينتهي الفصل بالكلام عن دينه وقوميته ، حيث اتاح له ذلك الكلام عن الشعوبية واصولها ، ثم تحولها الى صراع سياسي بين القوميتين الفارسية والعربية .

✱

ونقرب في الفصل الخامس من بؤرة الحوادث ، ونرى تسلسل الاحداث في خلفها اللازمة ؛ فالهدي يهمل سياسة التوازن في بلاطه بين العرب والفرس ، والبرامكة يستغلون صداقتهم له وللخيزران ، وشائج قرباهم من العائلة المالكة ، لتقوية وبسط سيطرة التيسار الفارسي على الدولة . ويظهر تفانيهم في ذلك في معركة ولاية العهد بين الهادي والرشيد ، حيث نراهم يسعون لاخذ ولاية العهد للرشيد من بعد اخيه الهادي بادىء ذي بدء ، ثم يحاولون تقديمه عليه بعد ذلك . ويتابع يزيد كل ذلك عن كتب فيرى فيه الخطر الكامن على عروبة

الدولة ، فيناصر الهادي ضد البرامكة ، ولكن يحدث ما يجعله يقبى عن مسرح الحوادث . اذ تشبب ثورة في جرجان وطبرستان فيكلف المهدي ابنه الهادي بالتوجه لقمعها ، ومعه جيش يقوده يزيد . ويخرج الهادي من بغداد والنقمة تملأ جوانحه على امه وابيه . وتأتي الحوادث مصدقة لظنونه فيهما ومبررة لنقمته عليهما ، فالمهدي يوافق على تقديم الرشيد في ولاية العهد على اخيه ، ويخرج الى جرجان لاقناع المهدي بتقبل ذلك ، ولكنه يموت مسموما في الطريق .

وهنا لا يقر البرامكة بالفشل ، بل يتابعون مكائدهم فيتقربون للهادي ، ويرعون الرشيد ، وينهد الحزب العربي في محاولة لانقضاء الدولة من البرامكة ومن النفوذ الفارسي ؛ وتسير شائعات بوجود قتل يحيى البرمكي ، ولكن الهادي يقضي ليلة ويتبوا الرشيد كرسي الخلافة فيكل الى يحيى امور الحكم ومقاليده .

✱

ويطالعنا الفصل السادس فاذا بالؤلف بسط لنا تحريات تاريخية دقيقة ، يكشف لنا الستار فيها عن الصراع بين اسرة البرامكة والسيار العربي في الدولة ، الذي كان يمثل الفصل بين الريس وعلي بن عيسى ومحمد بن فروخ ويزيد ، حيث نرى الى محاولات البرامكة لالقاء يزيد في التهلكة . ثم نشهد السياسة الماكرة التي اتبعها البرامكة لاشعار الرشيد بحاجته اليهم وذلك بخلق الانتفاضات عليه في كل جانب من جوانب المملكة ؛ الى ان تنتقل زعامة الاسرة البرمكية من يحيى الى ابنه جعفر ، الذي يشتد في سياسة محاصرة الرشيد ، فيعمل اثناء تولية اخيه الفضل على خراسان على تشكيل جيش فارسي هناك ، قوامه خصمانه الف جندي ، يكون ولاؤه لال برمك .

وهنا يقدم لنا المؤلف ملحمة « الوليد بن طريف الشاري » ، وهو الخارجي من ربيعة ، الذي احتل ارمينية واخضع الموصل واذربيجان ، ثم انحدر الى الرقة وبات يهدد بغداد نفسها .

لماذا تهاون البرامكة في المبادرة للقضاء على هذا الخطر الذي بات يهدد الامبراطورية ؟ .. ليس لذلك سوى تعليل واحد .. هو اشعار الرشيد بتوقف دوام ملكه على حمايتهم ؛ بل لعل الامر كان يعدو ذلك ؛ لعلهم كانوا يرمون الى الافساح للوليد للقضاء على الدولة العربية في بغداد ليقوموا هم بجيشهم من خراسان ، بعد ذلك ، بالقضاء على الوليد واعادة امبراطورية فارسية يكونون هم فيها الاسرة المالكة .

وانفجرت الحقيقة الهائلة لعيني الرشيد ، ومارت ثورة جامعة في نفسه ضد البرامكة ، ولكنه اسرها في نفسه ؛ وكان تحول مكتوم في نفسه ادى السر فيه الى المد بحياة الامبراطورية العربية اربعمائة سنة اخرى .

وهنا يبرز دور « يزيد بن يزيد » في الحفاظ على كيان الدولة ، فيقوم على رأس جيش جراد للقضاء على الوليد الخارجي . ونشهد ابرز صراع حربي ونفسي تعرض له القائد الاعلى لدولة هارون الرشيد . لقد كان الوليد بن طريف على رأس قبائل ربيعة ، وهي ابناء عمومة يزيد وافراد جيشه ؛ وكانت الحرب تعني فناء القبيلة الواحدة بتقتيل افرادها بعضهم لبعض ؛ ولم ير يزيد حلا لذلك غير المخاطرة بنفسه . ونازل الوليد منفردا ، على ما بينهما من فارق في السن ، ولكن الخبرة والقوة والايما انتصرت على الفتوة والشباب ، وقتل الوليد في الجازة .

ونقترب من المعركة الفاصلة بين النفوذ الفارسي والعربي ؛ فالبرامكة ، وقد شعروا بتغير دخيلة نفس الرشيد حيالهم ، يعمدون الى العمل الجدي لتنفيذ مآربهم ، اذ يعود الفضل بن يحيى من خراسان بعشرين الفا من الجيش الذي ائفه هناك ، ويجعل الفا منهم لحراسة الرشيد ، او لسد المنافذ عليه بالاحرى . ولكن الرشيد يترك بغداد نهائيا الى الرقة ، ومعه يزيد قائد جيوشه ، حيث يعمد في اجراءات متتالية الى الحد من نفوذ البرامكة .

✱

ويقف المؤلف الفصل السابع للكلام عن يزيد وهو في قمة المجد ،

فيصفه في بلاط الرشيد ، ويحدثنا عن مقامه بين حاشية الخليفة وعن تقديرهم له ، ثم يبين لنا اشتداد اواصر المودة والاهجاب بينه وبين الخليفة ، واعتماد هذا له في صراعه الخفي والظاهر ضد البرامكة ، الى ان يجعلنا نشهد حربه الهائلة ضد خاقسان الخزر ، الذي كان يهدد الامبراطورية العربية بغزو ماحق ، وانتصاره عليه الانتصار الباهر الذي خلف له شهرة عمت الخاققين ، وكانت له خير سمعان في انتصاراته اللاحقة التي تمت له على الخوارج والثائرين في خراسان والموصل ووادي الرس .

ويعود يزيد الى الرقة ، فاذا بهارون الرشيد ، وقد تهايا لانزال الضرية القاضية بالبرامكة ، يعمد الى توليته اقاليم ارمينية واذربيجان واران ، في حركة تحصين وقائي ، فينزل هناك في مدينة بردعة ، ويجري اصلاحات جمة ، ويفكر في العمل للسلم ، كما فكر طيلة حياته في العمل للحرب ، ولكن ...

لقد ابى القدر ، الا ان يجمع بين يزيد وخالد في كل شيء : جمع بينهما في نشأتها ، وفتوتها ، واعرابتها ، وقضاء حياتهما في الحروب ، وانتصاراتها في المعارك التي خاضها ، وملكتهما الخافتين بصيت متفوض مجيد ، ثم ها هو الان يجمع بينهما في الميتة التي انهى بها يزيد حياته المجيدة ، اذ به يموت حثف ائفه في منزله ببرذعة .

ويقف المؤلف عند هذا سير التاريخ ليفتح باب الادب ، ويتحفنا بالرائي التي قيلت في يزيد ، ويقض في شرحها والتعليق عليها ، فاذا لنا من كل ذلك ندوة ادبية كلها روعة وكلها سحر .

ويظل كاتبنا امينا على متابعتنا للملحة شيبان ، فيعرض علينا سيرة اسد بن يزيد ، ويرينا كيف كان نسخة طبق الاصل عن ابيه في كل شيء : في قامته ومظهره واخلاقه وطباعه ، وفي ضربة سيف كانت ترصع جبينه ، ثم في ما نذر نفسه له من العيش طيلة حياته للقضية القومية التي افنى ابوه فيها بيض ايامه ...

ولا ينتهي هذا الفصل حتى نشهد الخطوة الحاسمة للرشيد في التخلص من البرامكة ، من قتل جعفر بن يحيى واعادة السلطان الى ثوبه العربي القشيب ، واغماضة عين الرشيد على الدنيا في طوس بعد ان عقد البيعة لولديه الامين فالامون .

✱

وهنا ناتي الى الخاتمة التي تؤلف الفصل الثامن والاخر من الكتاب ، التي يخصصها المؤلف للكلام على اسرة يزيد واولاده الثلاثة : اسد ومحمد وخالد ، وما قام به كل منهم من ادوار القيادة بعد ابيه ، مما يتيح لنا استعراض معركة الخلافة بين الامين والمامون ، ثم متابعة خالد من بينهم على الخصوص في معارك النضال التي تجددت في خلافة العتصم بين قوى المسكر الصربي وقوى المسكر المقاوم له ، حيث نودع اخر صفحات الكتاب مع اخر سيف من شيبان ينتفض للدفاع عن القومية العربية وسيادتها .

وكاني بالؤلف ، وقد اوفى من تقديم القصة الرائعة لحياته هذا البطل العربي الفذ على النهاية ، يابى الا ان يزيدنا من فضله ، فاذا به يتحفنا بكراس من « الاخبار والطرائف » التي تدور حول حياة « يزيد بن يزيد » : فيها النادرة والظرفة ، والبيتان من الشعر والقصيدة ، مما لم ير مجالا لتضمينه بحته العلمي الكامل ، واحب اتحافتنا به لما فيه من فائدة ومتمعة . ثم يضيف فيورد تبنا بمصادر الكتاب حوى ثمانين من المراجع الهامة ، اتبمه بفهرس للاعلام ، واخر للشعوب والقبائل والطوائف ، وكالت للاشعار الواردة : في الكتاب ، ورايع للاماكن والبلدان ، ويختم ذلك « بمحتويات الكتاب » وهو فصل بلخص فيه فصول الكتاب ومواضيعه اصفى تلخيص واوفاه ، ينهيه بخارطة دقيقة كاملة للملكة الاسلامية في اوسع حدودها وممالكها .

✱

وبعد ، فالكتاب ملحمة الفروسية العربية ، تستعرض لوحاتها قييلة

شيبان ، امرق قبيلة امتطت النوق والحمر والمغيرات الجياد ، ولوحست الصفاح والرماح .

انه بعث لايام العرب الفر : نحيا بوفائهما وابطالها ، وتظهر ما عمر ساحها من بطولات وتضحيات واستشهاد ، فينطق ماضي اغر ، احتل شوامخ التاريخ .

انه معارك الانطلاق في حنايا ذي فار ، وشعاب طوروس ، واسوار القسطنطينية ، وقمم طبرستان ، وتخوم الخزر : تقلب صفحات التاريخ ، وتديل الامبرطوريات ، لترفع راية العرب خفاقة فوق العالم القديم .

ان ترجمة « يزيد بن مزيد » ، القائد الاعلى لدولة هارون الرشيد ، وعمه « معن بن زائدة » ، فارس العرب واحد اجوادهم : يستقطبان في فتوتهما الرائعة حوادث تفجر القرى العربية المخزونة ، في سبيل بناء عالم جديد .

هو كتاب جامع ، حوى السير والحوادث ، والتاريخ والعيسر ، والانساب والايام ، وروائع المناسبات ، في تحليل منهجي للحوادث غير مسبوق اليه .

انه سلسلة المعارك ، الظاهرة والخفية ، التي خاضتها القومية العربية ضد اعدائها من الشعوبيين والخورج وقبائل الهمج ، ضد الفرس والروم .

وان كان لنا من كلمة نختم بها التقديم لهذا الاثر القيم ، فاننا نقول : لقد كان جلاء لفترة من التاريخ حبيبة الى قلوبنا ، كذيلة بانارة الحماسة فينا ، واشاعة الاطمئنان لدينا بخصينا ، كان تصورا أميناً دقيقاً ، وعرضاً جذاباً واضحاً ، نيا عن العرض المتحفى الجامد المحنط ، ليكون ضاحاً وواقعياً ، ياسرنا بحيويته وصدقه فتتابعه بلذة وشوق ومتمة ، راجين المؤلف مداومة اتحافنا بحلقات مقبلة من سلسلة هذه الترجمات المهيبة المستفيضة .

زهير فتح الله



## ( ايام معه ) ( وليلة واحدة )

منشورات المكتب التجاري - بيروت

✱

ليست مؤلفة هذين الكتابين باول فتاة مسيحية شامية حرفت اسمها او اضافت عليه تحلية اعجمية ، او ترجمته الى الفرنسية . فلا غرابة ان صار اسم خولة ، هذا الاسم العربي الحبيب « كولييت » فكم من اسماء عربية اضيف اليها تحليات كاسم مريم الذي صار ماري ، ثم تحلى بالاضافة فصار ماري لويز ثم بالورد فصار ماري روز ثم ترجم اسم وردة الى روزيت ، ونور الى كليز وهكذا ، واذا كان الاسم يسدل على المسمى فكان الايق بالؤلفة وهي عربية دمشقية اموية ، الابقاء على الاسم الاصيل فيما سيدة من اشهر سيدات العرب عرفت بالحصافة ورجاحة العقل والنخوة والمرؤة ، اما اسم كولييت فترجمته العربية بنيةقة ، اي ياقنة وتصغيرها كولييت اي بنيةقة ، وما هذا الاسم المصغر الذي لا معنى له ولا جرس بلاتقي بقناة عرفت نفسها منذ تفتح برعومها وعرفها الناس شاعرة تنظم القوافي باللغة الفرنسية كما تجيد التعبير عن احساسها بلغة ابها رجل الحقوق والقوانين وجدها العظيم معلم الادب والسياسة والاجتماع واستاذ الزعماء ، ومربي الجيل السوري .

✱

سمعت باسم كولييت سهيل الخوري وكاني سمعت باسم « المعيدي » قبل ان اراه وراح الرواة يتقلون عن الرواة ايات ما سمعوا من موضوع

كتاب « ايام معه » لم يقرأه لا هؤلاء الرواة ولا اولئك النقلة ، واخذوا يتباعدون تباعد التوضي من اقتراب الدنس قبل الصلاة ، ينفون عن نفوسهم قراءة المحرمات والولوغ في الاثر .

لا رغبة في الاطلاع على اعترافات الفتيات المراهقات ، ولا تشوقا الى سماع ترانيم الشهوة واجترار اللذة التي ينعم المحروم منها بسماع الحديث عنها ، ولا استحثانا للرغبة الرغوب فيها ، بل حيا في الاطلاع على مدى وعي المرأة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين ، ومبلغ ما وصلت اليه قدرتها على افتتاح ميدان الحياة ومنافسة الرجل ، ومعرفة ماهو نوع سلاحها في عصرنا المعجول ، الوثاب ، وكيفية نظرتها الى المجتمع التحول الصاعد .

على هذا الاساس من العزم تأبطت « ايام معه » لا رفيق لسي سواه الا نارجيلة تخدر اعصابي انسائها كلما ضج بي الفرح ممسا اقرأ ، وانعم بالسرور من البيان الواضح والوصف البارع ، والصور الاخاذة ، والاسلوب السلس ، والتشويق الجذاب والصدق في الرواية . هل كانت حالتي النفسية الهائثة هي التي تدفعني الى التهام فصول الكتاب ؟؟ ام « الفردوس » الذي انا فيه وامامي بحيرته الواسعة ذات النوافير الخمس تقذف الامواه الى فوق فترند منكسرة كانها ذوب البلور النقي تنقر اوتار موسيقى عذبة التوقيع ساحرة الانغام ؟؟ ام تمايل قامات « العور » مع هبوب الريح وهمسات اوراقها الناعمة فسي هذا الوادي الاخضر وادي دمشق الفيحاء ؟ ام ختام كل فصل من فصول الكتاب وكانها ختام قصيدة عصماء من نظم شاعر موهوب ؟؟

قد يكون كل هذا ، وقد لا ابتعد عن الحقيقة اذا قلت اني ذهلت عن كل ماهو حولي من بدائع الطبيعة من مياه واشجار وانا اتابع القراءة بنهم ولذة وشوق ..

اتممت قراءة كتاب « ايام معه » الذي لا هو قصة ولا رواية ، بل هو كتاب « اعتراف » ذاتي كتبه خولة سهيل الخوري ووصفته به اولي رحلاتها الخاصة ، الرحلة الطويلة القصيرة ، الشاقة المريحة ، السعيدة الثقيلة ، الهوجاء المتأنية الباكية الضاحكة ، التي دفعتها اليها شجوب الفريزة مبكرا قبيل النضوج .

اقول دفعت اليها ، لان الاندفاع الجنوني المبكر نتيجة حتمية لتيارات عاصفة قل من الناس من لم تجرفه لتلقيه في هاوية ليس في الوجود الواقعي ماهو الطف منها ، ولا في الحس الذاتي ماهو الذ منها ، ولا في الشعور ماهو قريب منها ناهيك بالشعور المرهف والحس الدقيق . ولما كانت السيد كولييت مفطورة على ابداع الشعر ، والشعر في سموه السامي وعلوه العالي لا يتضع ولا يتواضع الى الاسهاب في وصف لمسات الشعور ، ولا التبسط في شرح صور الحس الاب « كلمة » ملهمة . ولما كانت اعاصير شعورها المبكر قوية والغورة غريزتها غليان ، وكان سيل اندفاعها عرما جارفا ، استطاعت بقدرة فنية بارعة ، تحويل هذه الظاهرة الطارئة المجنونة الى اندفاع شاعري مطرب ، وترانيم وانغام مشجية مفرحة تمثلت فيها خلجات نفسها ، وهمسات شعورها ، ونامات حسها « بكلمات » لاتصدر الا عن روح شاعري اصيل .

ولما كان تيار السيل الجارف المجنون ، تيار المراهقة ، لا يبالي اعلى السهل يسيل ام على الوعر ، اقدبر يتجمع ام يفيض ، ام شلال يندفق وينحدر هكذا راحت الكاتبة تتخبط لا تخبط الارعن اللتاف ، بل تراقص النشوان الطروب .. الطروب بكل ماتراه العين بعين الحبيب .. الحبيب الذي يفرح النفس ويسر الروح ، ويسعد الجسد ، ويروي الغاية الثابتة عن معنى الوجود بعد اشباع المعدة . هكذا راحت تطلق نوازعها ، تسترخ كوامن غرائزها تواقفة الى اثبات وجودها كامرأة ناضجة تعن الى حنان الامومة .

✱

اشخاص كتاب « ايام معه » ثلاثة ، اقول اشخاص لا ابطال ، الاول منهم أصم والثاني ابكم اما البطل الوحيد فهو الشيطانة الرجيمية صاحبة هذا الاعتراف الاحمر عذبة الحياء ، التي قولت فيها مالا يقال ، ومثلت تمثيلا واقعيا لا يمثل على مشهد من الناس ، وانطقت الشبه

بالله ما احلى المفاطة ... مفاطة النظام الطبيعي ... مفاطة  
الزمن المفاطة في العمر استرجاعا للشباب .

ان ابن العشرين لا يفهم معنى حياة من هو في سن الثلاثين او  
الاربعين ، وابن الاربعين وهو في اوج الحياة لا يرضى ان ينحدر درجة  
واحدة الى الجانب اليساري ، يريد البقاء في ذروة الاربعين ولو غالط  
النظام الطبيعي للانسان .

ليست العبرة في الافئحة الذاتي ، بل في اقناع الطرف الاخر  
بان الازهام والخيالات والتصورات هي مادة ملموسة محسوسة وهيئات .

✱

لمست قشة الاجهاد ظهر الفرس .. سلكت طلائع النهاية سبيها  
الى شعور ب « ريم » والى حسها ايضا ... وان ذلك الرجل الذي  
كانت تدوب نفسها وتفني في عينيه فد صار الى هوان بسبب تفسيره  
وعجزه ؟

مفارنة بسيطة بين الماضي والحاضر وموازنة اكثر بساطة بين  
الحاضر والمستقبل اثبتت « لريم » الحقيقة السافرة ، وقد ادركت  
بذاتها الوهاج وحسها النسائي ان سبيلها الى قتل حبها هو سلاح  
حبيبها وان هذا الحب الذي صدر الحكم باعدامه لا يذبح بالبحر بل  
بالفلسفة المنطقية .

ليس الحبيب هو القائل ان الحب عقل وعمق ؟؟

لقد ابلت « ريم » من جنون حبها الطاريء ومس حب « العاطفة  
الطائرة » زياد « فجن » .

واخيرا انتصرت المرافقة على جنون ريم ، على رغبتها المجنونة في  
الامومة ، وتيقظ شر الغدر الدفين في قرارة المرأة ، وكشر كبرياؤها عن  
انيابه ليتنقم من الحظي زير النساء والذي طالا اذل النساء اليس زياد  
هو القائل لها انها احسن من عرف من النساء ، وهل معنى ذلك  
ان النساء يمتزن بالحسن فقط وان لا قيمة البنة لروح المرأة وعقلها  
ووجدانها ؟

صفر « زياد » في عيني « ريم » فقالت : صحيفة «  
زحفت نظرائي ببط وبرود ... تسلفت قامته المديدة وتوقفت غريبة عند  
نفره ... ثم راحت تنبش في عينييه .. وتبحث فيهما عن شيء ... عن  
اي شيء .. عن اثر من احساساتي الماضية ... ولكن عبثا هذه العيون  
التي كانت تشع ، وتوحي الي بالوف المعاني تبدو فارغة .

« وهذه الشفاه التي كانت تصب الحياة في وجهي وفي مقلتي ..  
تبدو متدليلة .. تدل على السذاجة .

« هذا الرجل المنتصب امامي .. طالما وددت ان اتلاشى في ظله ..  
طالما تمنيت ان اضمحل بين ذراعيه .. يبدو مترهلا .. عاديا ..

« اني انظر اليه وكأنني اراه لأول مرة ايمكن ان لا اشعر نحو  
بشيء ؟؟ ايمكن ان يهديء الحب المضطرب في مدى لحظة ؟؟؟ « أهكذا!  
تخمد النار الاكلة في نوان ؟؟؟ انما الان لم أعد احبه » ؟؟

✱

عادت « ريم » الشيطانة الى الفراغ « الفراغ الذي كانت تخافه  
وتستقله وقد صار لها مصدر اطمئنان وسكون . »

وارتد الحظي على عقبه لا يريد ان يشعر بالنازلة التي نزلت  
به وقد هيات « كولايت » لنفسها رحلة الى اوربا فتفتش عن زاد روحي  
جديد يكون موضوعا لاعتراف جديد مع زياد جديد فحل .

ونطق البطل الابكسم كثيرا بعد طول صمت وموات حس قال  
لخطيبته « ريم » .

انا لانهمني القصص ولا جميع القصص التي قد تجري معك ، ولن  
احاسبك على ماضيك على سنين قضيتها وانا بعيد عنك ، انا لن اطلب  
منك اخلاصا اذا كنت لن ابادلك انا هذا الاخلاص ، انت انسانة لك  
حق في الحياة مثلي تماما ، ولست سخيفا اطلب ان اتملك حتى  
ماضيك ... رغبتني ان تكوني زوجتي .

لقد تحررت الشيطانة من غلظتها او انها كتمتها برماد من التريث  
والثاني ، لقد تحررت « كولايت » من حظيها الاسر وقد كان شيقا

الذي لا ينطق ، والذي يعمل دون ان يتصور الفهن كيف يعمل ، ان  
ظفرة هذه الشيطانة الصغيرة ، وجراتها على تسمية الاشياء باسمائها  
دون ماحياء او تحرج هي التي تدعوني الى نعتها بالرجيمة ، في حين ان  
قال لي من يعرفها انها طيبة القلب ، سليمة الطوية ، بسيطة غير  
ساذجة ولعل هذه الصفات هي التي تؤكد لي انها شيطان ملعون .

اما الشخص الابكسم فهو الحبيب المحظوظ ... كهل في الاربعين  
من عمره ، فنان موسيقي يصور شعور الانسان بالانغام ويدغدغ  
الاحاسيس بالانوار ، بهي الطلعة كما تراه الحبيبة ، زير نساء فحل كما  
يصوره فلمها ، لا يحفل بالحب ولا بالوفاء ولكنه صناع ماهر يعطي فيروي  
فيروي لا جودا ولا كرما .

ليس بدعا ميل الشاعر الى الفنان ، ولا انعطاف الفنان على الشاعر  
بصرف النظر عن فارق العمر بين الحبيين ، ولا بالمستغرب اتصال فتاة  
مغامرة ، متحررة الفكر ، تنقصها خبرة الحياة ، ملتزمة الشهوة ، مندفعة  
مع تيار المراهقة الجارف ... اقول ان اتصالها بهذا الكهل المتزن امر  
طبيعي يوازن طيشها المبكر ، ناهيك بانه حظي اي « جيجولو » لا يعني  
بقطف الثمرة الناضجة ، ولا يلمسها باطراف انامله لياكلها ، لانها تقدم  
له دائما على طبق من الفضة .. تلتفظها اطراف اصابع تلك المسكينة  
التيمة المدلهة لتضعها في فم الحظي التباه وهي تنتظر التقاط النسوة  
حين يمجها لتمصها هي وقد تعطرت .. بالابتلال يريق هذا الحبيب  
الفنان .. هل من عجب اذا تندفع تلك الفتاة المبرورة نائرة الروح التي  
لا تعرف السلام تسمى الى حيازة ذلك الحظي ، ووقفه عليها وحدها دون  
سائر النساء فتكون المفضلة عليهن جميعا .. وبذلك ترضى كبرياء  
انوثتها وتطرب في نفسها مركب التفوق لا مركب النقص .

اما الشخص الاخرس فلا ادري كيف اقحمته الظروف في هذه  
الدوامة التي اقلقت الاسرة ، اسرة الفتاة المراهقة ، واثارت اشمزاز  
اهلها منها لخروجها على اللياقة وتمرداها على العرف . ولكن عرفنا ان  
هذا الشاب من ابناء الغرب ، يحب الفتاة يريد الاقتران بها متى اتم  
دروسه في جامعة من جامعات اسبانيا ونال اجازتها . ونعرف ان الفتاة  
غير معنية به ولا تريد الزواج منه ، وهي في ذات الوقت تريد الاحتفاظ  
به كستار وتشيية امام الناس لانها في حقيقتها رغبة من صميم جوارحها  
في الفناء بين ذراعي حظيها المحظوظ حبيبها المفضل .  
وان هذا الابكسم المسكين « شراية خرج » يقال تعمية انه خطيبها  
سوف يكون قرينها .

هي ذي صورة مصفرة لاشخاص القصة التي لا يتحرك  
فيها سوى البطة وحدها اما الاخران فمفتاح حركتهما بيد « كولايت خانم »  
كما ينادونها بدمشق تحركه متى شاءت فيتحركان اليها .

✱

لكل بداية نهاية ، ونهاية الحب الطائش كامر الفطر والان وقد عرفنا  
بداية اعتراف « ريم » كولايت بطله القصة مع عشيقها « زياد » فصار  
علينا ان نعرف نهايتها .

قلنا ان الماشق الطائش في التاسعة عشرة من عمرها وشاعرة ،  
موهوبة ، والعاشق في الاربعين وفنان موسيقي بارع ، وان الشاعرية  
والفن لا يقيمان وزنا للتقديرات الزمنية القائمة على قاعدة حساب الايام  
والاسابيع والشهور والسنين .

وان الكهولة المتزنة تكمل الطياشة المبكرة وتضعها في موضعها  
الصحيح .

ولا ننسى ان نقول ان الازهاق الجثمانى بوهن همة الشباب  
ويحملها على الفتور فكيف لا يحطم قوة الكهل ويحملها على التقصير  
والعجز ، ونرى ان البطل المغوار ، الحظي زير النساء صار فيلسوفا  
يدعو عشيقته الى فهم معنى الحب ، وان تعريفها له انه « عاطفة طارئة »  
تعريف غير صحيح ، انما تعريفه الحق « عقل وعمق » .

ونلاحظ ان كلا العاشقين اخذ بفلسف موقفه وبروز مسؤوليته ،  
ومعنى ذلك اشتباك العاطفة بالعقل والتحام الذاتية في معركة بداية  
النهاية .

يعطي بسخاء ، ويرضي من غير من ، ويروي العطشة وقد تحول المسكين الى شيء .. شيء هين لا قيمة له ولا قدر ، وكان يهوس الضمير ، ضمير الشيطان قد تيقظ بعدان عرف بعض الخير وكل الشر فاتجسه صوب الدير بندر الرهبنة ، هكذا يقول المثل الانجليزي عن الشيطان متى تجاوز الاربين من عمره ، وهكذا همس ابليس في اذن « كولايت » ينذرنا بصير عشيقها وقد انحدر الى الخمسين او الستين .

وبقي لها ، او هي استبقت « شرابة الخرج » خطيبها الي حين ، هذا الخطيب الذي عرفنا منه ان لا شأن له البتة بماضي خطيبته وحاضرها ، وانه ليس سخيفا يحاسبها على ما تفعل وعلى قول الناس فيها واقلولهم عنها .

هنا يحق لنا ان نسأل هل تم اعتراف كولايت بانتهائها من قراءة الاربعمائة وعشر صفحات من كتابها ايام معه ؟؟ فنحجب ان للكتاب شقيقا جديدا تجسد في مولود جديد اسمه « ليلة واحدة » .

عرفنا ان الكتاب البكر اعتراف ذاتي بحت ، اعتراف كولايت سهيل خوري ، الخاص وان السنة الناس لاكت هذا الموضوع قبل ان يتكون من حروف وينجسد في كتاب يقرأه الناس .

وان الحكاية لن تنتهي بانصراف ابطالها كل واحد في طريق ، لان جديدا قد جد في حياة السيدة كولايت ، وقد تزوجت ، وان زوجها دام احدى عشرة سنة في العمق ، ولكن من هو العقيم هي ام زوجها . وتقول في كتابها « ليلة واحدة » ان عزمها وعزم زوجها قد صحح على السفر الى باريس لعرض الزوجة على طبيب اخصائي .

وتقول ان اعمالا تجارية ضرورية اضطرت زوجها الى التخلف في مرسيليا وقد تركها تسافر وحدها في القطار الى باريس واعدا ايهاا باللقاء بها في اليوم التالي وتقول « كولايت » ما معناه « لاحت عينها وهي في عربة سكة الحديد رجلا في نحو الخامسة والثلاثين كامل النضج فياض الجاذبية تستكن في عينيه نظرات الحنان والحزن والتوسل ... وتجهر بان شعورها اضطرت استجابة لنداء الجنس . فافتريت منه وان حديث هذا الرجل الباريسي العذب الانيق قد سحرها ... وان جوانحها قد تفتحت لقصة حياته الخاصة وهي حكاية رومانتيكية مشرقة مشوقة جذابة مؤثرة وتقول ان كرم الرجل بهرها في باريس وقصد بلغاها قرب نصف الليل ينتقل بها من مطعم الى مقصف الى علب ليلية راقصة ماجنة ، وقد اسكرها عطفه وحنانه ونظراته المضطربة بالشوق . وقد ازداد وجدها وهجا بفعل الشراب .

وتعترف بانها استقرت معه بعد المطاف والانتقال من مقصف الى اخر في غرفة في نزل من هاتيك النزل التي يعرفها الباريسي « الفارح » المخصصة لمثل هذه الزيارات الخاطفة تحت جنح الليل . وكانت ليلة او بضع دقائق من ليلة مقدماتها بوهيمية حمراء يعجز قلم الرجل عن وصفها احتشاما ، لا لان الحديث الجنسي يفعل ولا يقال ، بل لانصراف الذكر يوافر حيويته الى اغصاب الانثى المتهيئة ونفحها اكسير الحياة لبقاء النوع .

ولان الانثى في هذا الحال تكون منفتحة الجوارح ، يقظة الوجدان ، منتبهة الذهن ، مرهفة الشعور ، نشوى الاحاسيس الذاتية . وهل المرأة بمجملها سوى احاسيس ذاتية ؟؟

اما « كولايت سهيل خوري » الشاعرة فقد وصفت فاجادت الاجادة المطلقة في وصف كل شيء ... كل شيء ، وضاعة الغرفة ، قلبية الاستعطاف ، نضو المعطف ، ضم الخصر تلوي الجسم ثم آتات السرير تحت وطء جسدين ملتحمين ، ثم تنهدات وشهقات وانسكاب دموع ، وصفا نسايبا شاعرا خاليا من حشمة الانسان مجسدا تجسيدا بالفسا حيوانية الانسان التي تبد كل حيوان .

يلخص كتاب « كولايت » الاول « ايام معه » بكلمات ثلاث مراوحة فاهدار عفة والكتاب الثاني بكلمتين اثنتين « خيانة زوجية » .

لم يخل الكتابان من سقطات لا ادري كيف تعثرت فسقطت فيها كولايت سهيل خوري ، وهي النبهة اليقظة ، المالكة لخاصية التصوير

البارع ، والمسيحية التي تعيش في وسط اجتماعي متحرر من قيود الاختلاط ، كيف عرفت خطيبها « سليم » متقطعا وقد صار بعلمها الشرعي ، كيف نظرت اليه حين جاء يطلب يدها من والدها من شسق باب الصالون او من مفتاح الباب . رأت مرة يده ومرة اخرى رأسه وحذاءه ...

قد ينطبق هذا الوصف الخاطيء على البعض القليل من الاسر الاسلامية المحافظة بعض الانطباق ، ولا ينطبق من قريب او بعيد على الاسر المسيحية بكافة طبقاتها .

هذا مثال استشف منه دليلا على ان السيدة كولايت غريبة عن الاسر الاوساط الدمشقية ، غريبة في تفردا في تفكيرها ، غريبة في انحرافها وتصرفاتها ، غريبة في تسويغ توقفها الشاذ ، غريبة في اتهام الرجل بجهل المرأة .

ثم سقطت ثانية اشد من الاولى تقول السيدة :

« وانطلقت الى الشارع تائهة اسائل صميق فجر باريس عن طريق الى فندقتي » .

ولا ننسى انها امت غرفة الخيانة قبيل الفجر اي انها مكثت فيها برهة قليلة من الزمن ريشا نزا الفعل ، وهرعت الى فندقها عند الفجر . وتقول ايضا « مرق هدوء غرفتي فجأة زعيق الهساتف ... انفرجت الانامل لا شعوريا تحاول اخفاء اخر صفحة من رسالتي المبعثرة ... يذكرها المتحدث بالهاتف بالموعد مع الطبيب في الساعة التاسعة » .

يفهم من قولها هذا انها ودعت طريقها عند الفجر وانطلقت الى فندقها تكتب رسالة الى زوجها تعترف بخيانتها له ، وتسوغ هذه الخيانة بقولها « ان خيانة الروح اشد من خيانة الجسد » وهنا يحق لنا ان نتساءل هل من الممكن كتابة ٢٣٥ صفحة في اربع او خمس ساعات ؟ اظن ان المستحيل هو هذا .

ثم تقول ... « البارحة لاول مرة في حياتي كنت صادقة مع نفسي » اي انها عرفت المتعة التامة بارواء الجسد ، وتتساءل مرة ثانية كيف تكون المتعة كاملة والارتواء تاما ولا يعقبها على التو ارتماء على الفراش واستغراق في نوم عميق يسهل انسياب هرمونات الحياة وامتصاص الجسد لها ، وهو حالة طبيعية تكيفها الطبيعة وتعددها ليستعد الجسد لمعركة بشرية تالية ، وكيف عاكست المؤلف نظام الطبيعة في الجسد المرتوي فلم تتم بل نجد العكس نجد تشبه اعصابها ، ويفظة ذهنها ، واندفاعها تكتب ٢٣٥ صفحة في اربع او خمس ساعات . من العلوم ان كل امرأة ترضى الرجل ، وما كل رجل يرضى المرأة ومعلوم ايضا ان الارتواء يعقبه نوم عميق ، وعدمه يثر الاعصاب ، وان الاطمئنان يعقب العطية الجنسية ويدعو الى الراحة والهدوء ، وان التيقظ والتنبه والتوفز وليدة الخيبة والفشل .

هذا التخطيط له احدى دالتين الاولى الجهل في التكوين الطبيعي للانسان وتركيب الجسد ، وتأثر حركاته بعضها من البعض الاخر . والدلالة الثانية هو التلفيق غير الموفق ، تليفيق هذا اللقاء الخائن وقد صورت فيه رغبتها المكبوتة لما تتمنى وقوعه وتشتبهه لا لما وقع بالفعل . ليس مثل هذه السقطة بالكثير في الكتابين ، بل الكثير تكرار الصور وتشابكها ، وترديد العبارة اكثر من مرة واحدة والاسراف في الوصف والمقابلة فيه .

✱

كتبت هذه السطور وانا في دمشق ، وسمعت من اقرب المقربين من وسط كولايت سهيل خولاوي والشقيق ان المؤلفة العصرية المتحررة دونزت اوتار قيثاره نيرون وهيئتها لانشاد نغم نشاز جديد ، وحريق جديد من نوع « ايام معه وليلة واحدة » في طريقه الى الظهور .

لا مرجبا بايام كولايت ولياليها ومآسيها ، ولا سلام عليها لان خلية شهدها تنفع السم القاتل !

حبيب الزحلاوي

القاهرة